شرح

تجريد التوحيد المفيد

تأليف

الإمام العلّامة أحمد بن علي المقريزي المصري الشافعي

(٧٦٦ - ٨٤٥ هـ)

لفضيلة الشَّيْخِ الدُّكْتُورِ:

سليمان بن سليم الله الرحيلي

غَفَرَ اللّٰهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِمَشَايِخِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

الدَرْسِ (٢)

السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الأتمان الأكملان عَلَىٰ المبعوث رحمةً للعالمين، وسيد ولد آدم أجمعين وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ الطيبين الطاهرين ومَن تبعهم بِإِحْسَانٍ واستقام إِلَىٰ يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ؛

فمعاشر الفضلاء نواصلُ شرحنا لكتاب تجريد التوحيد المفيد لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي المصري الشَّافِعِيّ.

وَهٰذَا الكتاب كما عَلِمنا في توحيد الألوهية، وهو أوَّل كتاب جُرِّد وأُفرِد في توحيد الألوهية فيما بلغنا، وَهٰذَا الكتاب مهمٌ جدًّا، ففيه كلياتُ توحيد الألوهية، وتقسيماتٌ لَا بُدَّ منها في توحيد الألوهية وما يُضاده، والمسلم إِذَا فهم هٰذَا الكتاب، أعني تجريد التوحيد المفيد، وكتاب التوحيد لشيخ الإسلام مُحَمَّد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أحكم توحيد الألوهية إحكاماً، فإذا فهم كشف الشبُهات لشيخ الإسلام بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ، حَمَى توحيده حمايةً، فَهٰذِه الكتب الثلاثة من أَنْفَسِ ما يُقرأ، ويفهم ومن أنفع ما يكون لمن يرجو الله واليوم الآخر، تجريد التوحيد المفيد للمقريزي، كتاب التوحيد لشيخ الإسلام مُحَمَّد بن عبد الوهاب، وكشف الشبُهات لشيخ الإسلام مُحَمَّد بن عبد الوهاب، وقد تقدم الكلام عن مقدمات تتعلق بالكتاب، وقرأنا مقدمة المؤلف ونواصل قراءة ما سطَّره هٰذَا الأمام المقريزي، فليتفضل الابن نور الدين وَفَّقَهُ اللهُ والسامعين يقرأ لنا من حيث وقفنا.

(المتن)

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ والصلاة والسلام عَلَىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين نَبِيِّنَا مُحَمَّد وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ أَمَّا بعد: فاللهم أغفر لنا ولشيخنا والسامعين، قَالَ العلامة أحمد بن علي المقريزي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: في كتابه تجريد التوحيد المفيد تجريد التوحيد المفيد: "اعلم أن الله سُبْحَانَهُ هو ربّ كل شيءٍ ومالكه وإلهه".

(الشرح)

[اعلم] يقدمها العلماء بين يدي الأمور المهمة ذات الشأن العظيمة، أو الأمور القطعية الَّتِي لا يتطرق إليها احتمال، إِذَا وجدت في كلام الإمام في كلام العالِم اعلم، فاعلم أنَّ الذي بعدها أمرٌ مهم عظيم الشأن كبير الأثر، أو أنَّهُ أمر قطعياً لا يتطرق إليه احتمال، وكلا الأمرين موجود هنا، فما بعد اعلم هنا أمر مهم جدًا عظيم الأثر، وهو أمرٌ قطعيًا لا احتمال فِيْهِ.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: " أن الله سُبْحَانَهُ هو رب كل شيءٍ ومالكه إلهه"، هذَا ذكاء من المقريزي رَحِمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وإدراكٌ لسبب الصواب في التوحيد في توحيد رب العالمين، وإدراكٌ لسبب الانحراف في هذَا الشأن، أَلَا وهو قضية التفريق بين الربوبية والإلهية، وإدراك وجه العلاقة بينهما، وَهذَا هو سر التوحيد.

إدراكُ الفرق بين الربوبية والألوهية، وإدراك وجه العلاقة بينهما، فإنَّ من اتَّضَح له ذلك يصفو له توحيده، ولا يكون عنده إشكالٌ في التوحيد، ومن لم يتضح له ذلك لَا بُدَّ من أن يقع له خلل وانحراف في التوحيد، فقد أدرك المشركون قبل بعثة النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الَّذِينَ بُعث فيهم النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فكانوا مشركين قبله وبعث فيهم ودعاهم إِلَىٰ التوحيد، أدركوا الفرق بين الربوبية والألوهية، لكنهم لم يهتدوا إِلَىٰ العلاقة بين الربوبية والألوهية، فأقروا بالربوبية ولم يقروا بالألوهية، فكانوا إذا سُألوا عن أفعال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نسبوها إِلَىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما في قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]

وإذا قيل لهم قولوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أبوا واستنكفوا واستنكروا، وقالوا ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥]، فعرفوا الفرق بين الربوبية والألوهية؛ لأنه لو لم يعرفوا الفرق فَلَا بُدَّ من أحد أمرين، إمَّا ألَّا يقروا بالربوبية كما لم يقروا بالألوهية، وَإِمَّا أن يقروا بالألوهية كما أقروا بالربوبية، لكن مع إدراكهم الفرق لم ينفعهم ذلك.

لأنهم لم يهتدوا إِلَىٰ العلاقة بين الربوبية والألوهية، وكان إقرارهم بالربوبية ناقصاً من جهة أنهم لم يهتدوا إِلَىٰ العلاقة بينها وبين الألوهية، وَإِلَّا فلو كان إقرارهم بالربوبية تاماً، لاستلزم يقيناً أن يقروا بتوحيدِ أو يقروا بالألوهية، فمن أقر بالربوبية إقرارًا تامًا صحيحًا، استلزم ذلك يقيناً أن يقر بالألوهية.

ومَنِ مُشرِكي هٰذَا الزمان، وما قبله ممن ينتسبون إِلَىٰ الإسلام، من لا يعرف الفرق بين الربوبية والألوهية، فيجعلون التوحيد كلَّهُ ربوبية، ويشركون في الألوهية إشراكًا عظيمًا؛ لأنه م جعلوا التوحيد كله الربوبية، مع عدم خلوصاً لهم حَتَّىٰ في توحيد الربوبية، أمَّا نصوص القرآن وَالسُّنَّة ففيها بيانٌ لمعنى الربوبية، وبيانٌ لمعنى الألوهية.

وبيانٌ للعلاقة بين الربوبية والألوهية، وآثار السلف فيها فهم ذلك فهمًا عظيمًا، والحظ هنا رعاك الله، أنَّ الْمُصَنِّف هنا ذَكَرَ الرَّبّ سُبْحَانَهُ وذكر الإله وهٰذِه الربوبية والألوهية، وذكر المالك مع أنَّ المالك داخل في معنىٰ الرَّبّ كما سيأتي، فلماذا أفرده هنا؟ لأنَّ المالك لَا بُدَّ أنْ يعظم، وَلَا بُدَّ أن يكلِّفَ من في مُلكهِ.

وأن يوحَّد في طاعته فلا يُطاع إلا هو أو من أمر بطاعته، إذاً لماذا أفرد المالك هنا؟ لهٰذِه الحكمة وهٰذِه الغاية، المالك لَا بُدَّ أَنْ يُعظَّم، وَلَا بُدَّ من أن يكلف من تحته من في مُلكهِ، وَلَا بُدَّ أن يفرد بالطاعة فلا يطاع إلا هو أو من أمر بطاعته، إذاً في نصف سطراً سِرُّ التوحيد، فينبغي أن نحفظه، ونفهمه ونعلمه أهلنا وأطفالنا.

وهذَا سرٌ قول ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٢-٥]، فمن أقر بربوبية الله، وأنه سُبْحَانَهُ المالك، وعرف أنَّ رب العالمين المالك هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المعبود المحبوب، وأدرك العلاقة بين الربوبية والألوهية.

استلزم ذلك قطعاً أن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، والخلل في العبادة والاِستعانة يرجع إِلَىٰ خلل في معرفة الفرق بين الربوبية والألوهية، أو إِلَىٰ خلل في إدراك العلاقة بين الربوبية والألوهية أو إِلَىٰ الأمرين، إذاً مَنْ أقر لله بالربوبية إقرارًا صافيًا، فَلَا بُدَّ يقيناً من أَنْ يُقِر لله بالألوهية إقرارًا خالصًا.

ومن أَقرّ لله بالملكِ استلزم ذلك أن يقر له بالتصرف بالأمر وَالنَّهْي، وأن يقر له بالطاعة والخضوع والذِّلة، وأن يقر له بالجزاء والحساب، وهٰذَا النصف للسطر تضمن تقسيم التوحيد وسر التقسيم، فَالرَّبُّ فيه توحيد الربوبية والإله فيه توحيد الألوهية، فتوحيد الألوهية هنا في هٰذَا السطر من جهتين، من جهة اسم الله وأصله الإله كما سيأتي بيانه، ومن جهة الربوبية تستلزم الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات موجود في هٰذِه الأسماء الرب الله المالك، هٰذِه الأسماء فيها صفات، والله اسم الله الأعظم الَّذِي تتبعه الأسماء كما سيأتي، فيه كل صفات الكمال والجلال لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبهٰذَا تدرك يا رعاك الله أنَّ التوحيد مع انقسامه إِلَىٰ هٰذِه الأقسام الثلاثة بين أقسامه علاقة بَيِّنة، فالعلاقة بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية علاقة استلزام، فكما قُلنا مَنْ صَفَى له إقراره بالربوبية.

لزِم يقيناً أن يقرِّ بالألوهية مخلصًا، والعلاقة بين توحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الربوبية والألوهية علاقة شُمُول، فالتوحيد كله في أسماء الله وصفاته، فَالرَّبُّ والله والمالك شامل للتوحيد كله، ومن عرف هٰذَا صَفَى له الأمر، وبعض دعاة الشِّرْك في زماننا يستميتون لإنكار التفريق بين الربوبية والألوهية؛ ليوهموا أن توحيد الله إِنَّمَا هو في الربوبية، لماذا تجد أنَّ دعاة الشِّرْك الَّذِينَ يدعون إِلَىٰ دعاء غير الله والاستغاثة بغير الله يؤلمهم تقسيم التوحيد؟ لإنه إذا قُسم التوحيد كما في الكتاب وَالسُّنَّة اِنسدت عليهم الأبواب بالكلية، لكنهم يريدون أَنْ يُفْهِمُوا الناس أنَّ التوحيد كله هو الربوبية، حَتَّىٰ يتسللوا إِلَىٰ إفساد توحيد الألوهية عند الناس، ليبرروا الشِّرْك بالله نعوذ بالله من الخذلان.

ولابن القيم رحمه الله عَزَّ وَجَلَّ كلام بديع، في الارتباط بين اسم الْرَّبّ والله والمالك والرحمن، أربع أسماء يدور عليها الإيمان ويدور عليها التوحيد، حيث **قَالَ رَحِمَهُ اللهُ: "وتأمل ارتباط الخلق والأمر بهٰذِه الأسماء الثلاثة"**، وهي الله وَالْرَّبُّ والرحمن، ثُمَّ سيأتي في أثناء الكلام المالك، قَالَ كيف نشأ عنها الخلق والأمر والثواب والعقاب.

وكيف جمعت الخلق وفرقتهم، فلها الجمع ولها الفرق، فاسم الرب له الجمع الجامع لجميع المخلوقات، فهو سُبْحَانَهُ رب كل شيء، وخالقه والقادر عليه لا يخرج شيء عن ربوبيته لَا شَكَّ في هٰذَا، الله سبحانه رب كل شيء رب العالمين، قَالَ فاجتمعوا أي الخلق بصفة الربوبية، وافترقوا بصفة الإلهية فألهه وحده السُعداءُ، وأقروا له طوعاً بأنه الله الَّذِي لا إله إِلَّا هو، الَّذِي لا تنبغي العبادة

والتوكل، والرجاء، والخوف، والإنابة، والإخبات، والخشية، والتذلل والخضوع إلا له، الحظوا قوله هنا فألَّهَهُ وحده أي عبده وحده السعداء في الدنيا والآخرة، وأقروا له طوعاً، أقروا له باختيارهم، فهم عباداً طائعون مختارون، بأنه الله الَّذِي لا إله إِلَّا هو، الَّذِي لا تنبغي العبادة إلا له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قَالَ وهنا اِفترق الناس وصاروا فريقين.

فريقٌ مشركين في السعير وفريق موحدين في الجَنَّة، فالإلهية الَّتِي فرقتهم كما أنَّ الربوبية هي الَّتِي جمعتهم، فالدين والشرع والأمر وَالنَّهْي مظهره وقيامه من صفة الإلهية، والخلق والإيجاد والتدبير والفعل من صفة الربوبية، والجزاء والثواب والعاقب وَالجَنَّة وَالنَّار من صفة المُلكِ، هنا اسم المالك وهو مَالك يوم الدين.

فأمرهم بإلهيته وأعانهم ووفقهم وهداهم وأضلهم بربوبيته، وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله، وكل واحدة من هٰذِه الأمور لا تنفك عن الأخرى، وَأمَّا الرحمة الَّتِي هي صفة الرحمن، فهي التعلق والسبب الَّذِي بين الله وبيَّن عباده، فالتأليه منهم له والربوبية منه لهم، والرحمة سبباً واصلٌ بينه وبين عباده، بها أرسل إليهم رسلهم.

أنزل عليهم كتبه وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه وبها رزقهم وعافاهم، إذاً الرحمة عامة وخاصة، عامة لكل الخلق أرسل إليهم رسله عامة، أنزل عليهم كتبه عامة، رزقهم عامة عافاهم عامة أنعم عليهم عامة، هداهم خاصة، خاصة بأهل الهِداية، انتهي كلامه بِاختصارٍ بالحذف من غير تغييراً لكلامه.

وستأتي إِنْ شَاءَ اللهُ إشارة المقريزي لهذَا؛ إذاً يا عبد الله افهم هٰذِه الجملة العظيمة القصيرة فهمًا صحيحًا فإنها سر التوحيد، وبها صفاء الإيمان وصفاء التوحيد لمن فهمها فهمًا صحيحًا، وعرِف العلاقة بين هٰذِه الأسماء.

(المتن)

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ: "فَالرَّبُّ مصدر ربَّ يَرُبُّ ربًّا فهو رابٌّ".

(الشرح)

بدأ الْمُصَنِّف رَحِمَهُ اللهُ يبين معنى هٰذِه الأسماء الثلاثة، فَالرَّبُّ ذَكَرَ ابن فارس في مقاييس اللغة أَنَّهُ يدل عَلَىٰ ثلاثة أصول أي في لغة العرب، اَلْأَوَّلُ إصلاحُ الشيء والقيام به، فَالرَّبُّ المالك والخالق، وصاحب الشيء والمُصلح للشيء، يَعْنِي يأتي الرب بمعني المالك، يُقَال رب الدابة أي مالك الدابة، ويأتي بمعنى الخالق وَهٰذَا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ويأتي بمعنى صاحب الشيء فَيُقَال رب البيت يَعْنِي صاحب البيت، والمصلح للشيء يُقَال رب الأسرة، أي المصلح للأسرة أي القائم عَلَىٰ صلاحها وتربيتها بالأسباب، قَالَ: **"والأصل الثَّانِي لزوم الشيء والإقامة عليه"**، وهٰذَا أَيْضًا يا إخوة يستلزم الإصلاح والتدبير، يُقَال ربَّ فلانٌ قومه إذا ساسهم وعمل عَلَىٰ تدبير أمورهم.

والأصل الْثَّالِث ضم الشيء للشيء، يقولون فلان يَرُبُّ الناس أي يجمعهم، قَالَ: **"وتأتي كلمة الرَّبّ بمعنىٰ السَّيِّد"**، انتهى كلام ابن فارس ملخصاً، وقيل إنَّ الرَّبّ مُشتقٌ من التربية، قَالَ الراغب: **"الرَّبّ في الأصل التربية"**، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مدبر خلقه ومربيهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقال بعض العلماء الرَّبّ **"مصدر ربَّ يَرُبُّ ربًّا فهو رابٌّ"**.

بالألف متوسطة بين الراء والباء أي مُرَبِّي هٰذَا سم فاعل، وقال بعضهم بَلْ هو مصدر بلفظه ربَّ يَرُبُّ ربًا بدون ألف، وهو مصدر بمعنى الفاعل أَيْضًا أي المُربي، ولفظ الرَّبّ ورد في القرآن كثيراً حَتَّىٰ بلغ ثمانية وسبعين وتسع مئة، وَأَمَّا وروده مفردًا فورد إحدى وخمسين ومئة مرة في القرآن، وقد ذَكَرَ المفسرون أن الرَّبّ بمعنى المالك، وَالسَّيِّد والكبير والمرتفع، وذكر الإمام الطبري أنَّ الرَّبّ في لغة العرب له ثلاثة معاني، فَالسَّيِّدُ المطاع يدعى ربًا إذاً عندنا السَّيِّد والمطاع، السَّيِّد المطاع يدعى ربًا والمصلح للشيء يدعا ربًا، والمالك للشيء يدعى ربه، السَّيِّد المطاع المصلح للشيء المالك للشيء، قَالَ فربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ السيد الَّذِي لا مثل له في سؤدده.

والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه، والمالك الَّذِي له الخلق والأمر، فرب العالمين هو موجدهم ومنشئهم من العدم، ومربيهم بالنعم ومدبر أمورهم، والمالك الَّذِي له الخلق، رب العالمين الْرَّبّ سُبْحَانَهُ هو موجد العالمين ومنشئهم من العدم، ومربيهم بالنعم ومدّبر أمورهم، والمالك الَّذِي له الخلق والأمر.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، قَالَ القرطبي: **"أي مالكه وهو مالك كل شيء"**.

وقال تَعَالَى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨]، قَالَ ابن كثير: أي هو الَّذِي جعل المشرق مشرقاً تطلع منه الكواكب، والمغرب مغربًا تغرب فيه الكواكب، مع هٰذَا النظام الَّذِي سخرها فيه.

وهو سُبْحَانَهُ المالك المتصرف في المشارق والمغارب، قَالَ ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: **"الْرَّبّ هو السَّيِّد والمالك والمنعم والمربي والمصلح، والله تَعَالَىٰ هو الْرَّبّ بهٰذِه الاعتبارات كلها"**، قد بين موسى عليه السلام معنى الْرَّبّ، قَالَ تَعَالَىٰ عن فرعون، قَالَ: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٤٩-٥٠].

هٰذَا الْرَّبّ الَّذِي أعطى كل شيء خلقه، فخلقه وأَنْعم عليه وهداه لما يصلحه في دنياه، وهٰذَا عام لكل المخلوقات، وهَدى أهل السعادة لتوحيده ودينه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَالْرَّبُّ بإطلاق هكذا هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لأن (ال) تقتضي الاستغراق، وذلك لا يكون إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولذلك لا يطلق الرب هكذا إِلَّا عَلَىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أَمَّا إطلاقه عَلَىٰ المخلوق فالمخلوق ضعيف لا يليق به الإطلاق العام، فلا يكون إِلَّا مضافاً، فكما قلنا يقال رب الدابة رب البيت رب الأسرة ونحو ذلك، قَالَ ابن الأثير عن الْرَّبّ: **"ولا يطلق غير مضاف إِلَّا عَلَىٰ الله وتعالىٰ، وإذا أُطْلِق عَلَىٰ غيره أُضيف"**، وقَالَ ابن كثير ولا يُستعمل الرب لغير الله بل بالإضافة.

يَعْنِي يستعمل لغير الله بالإضافة تقول رب الدار ورب كذا، وَأَمَّا الْرَّبّ فلا يقال إِلَّا لله عَزَّ وَجَلَّ؛ وربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُقِرُّ بها كل عاقل، ولم ينكرها عبر الأزمان إِلَّا شذاذ، ينطبق عَلَىٰ أكثرهم أنهم ينكرونها بألسنتهم وقلوبِهِم موقنة بها، فالربوبية تدل عليها جميع الدلائل، يدل عليها العقل الصحيح، فالعاقل إذا تأَمَّل بعقله ما حوله، أيقن بأنَّ للكون رباً لا يَشُكُّ في هٰذَا من كان عنده عقل.

وتأمل في الكون وانتظام الكون، ينتظم فيه الكبير والصغير، أدرك أن للكون ربًا عظيمًا مُوجدًا واحدًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والأدلة الكونية تدل عَلَىٰ ذلك دلالةً قطعية، ولو لم يكن في الكون إِلَّا هٰذِه الشمس الَّتِي تَطَّلِعُ عبر الأزمان من المشرق، وتسير في انتظام وتَغرب في وقتها في المغرب، لو لم يكن في الكون إِلَّا هٰذَا لدلَّ دلالة عظيمة عَلَىٰ الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا يمكن أن يكون هٰذَا الانتظام إِلَّا من مدبر عظيم قدير، الشمس تطلع من مشرقها، ما نجد أنها في يوم تطلع من الجنوب وفي يوم الشمال وفي يوم من الغرب، هٰذَا الانتظام محال أن يكون إِلَّا مِنَ الْرَّبّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وانتظام سيرها إِلَىٰ أن تغرب في مغربها، فكيف والشمس نقطة في بحر الكون؟

فهٰذَا الكون وانتظامه، ينظر الإنسان في السماء فيرى القمر وتدرجه خلال الشهر، ويعلم أنه في الزمن الفلاني سيخرج في الجهة الفلانية نجمٌ يسطع، يبقى أيام معلومة وهٰذَا بانتظام، يدل عَلَىٰ أنَّ ربه ومدبره واحد، إذ لو تعدد لاضطرب الكون ولا ما اِنتظم هٰذَا الانتظام، ولذهب كل إله بما خلق، فهٰذَا الكون يدل عَلَىٰ الْرَّبّ وعَلَىٰ أنه واحدٌ.

والأدلة النفسية تدل عَلَىٰ الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لو تأَمَّل الإنسان في نفسه كيف خُلق عَلَىٰ هٰذِه الهيئة والناس عَلَىٰ هٰذَا، وكيف خلق الله فيه أجهزةً تعمل بانتظام عملًا عجيبًا بديعًا، وأنَّهُ لو تعطل عضوٌ منها في بعضها يعجز عقلاء الدنيا عَلَىٰ إحداث بديلٍ له، وبعضها إذا أرادوا أن يحدثوا شيء يقوموا مقامه ويعمل عمله، يحتاجون إِلَىٰ أجهزة كبرى إِلَىٰ عمل شديد وكرار، هٰذِه الكلية الصغيرة إذا تعطلت صار ما يسمى بالفشل الكلوي حماني الله وَإِيَّاكُمْ، يحتاج الأطباء إِلَىٰ أجهزة وإخراج الدم من الجسم، ثُمَّ إعادة الدم إِلَىٰ الجسم كما هو معلوم؛ لو تأمل الإنسان أو تعلم عن أجهزته، لدله ذلك دلالة بَيِنَّة عَلَىٰ الرب سُبْحَانَهُ بأنه واحد.

سُبْحَانَ اللَّهِ تركيب الإنسان عجيب، وكل عضو في مكانه، مثلًا يا إخوة المثانة هٰذَا العضو العجيب، يقول العلماء إنَّهُ مصمط يقبل ولا يعيد، يَعْنِي يدخل فيها البول لكن مستحيل أن يرجع إِلَىٰ الجسم، وهٰذَا شيء عجيب لأنه لو رجع إِلَىٰ الجسم لتسمم الإنسان، وآيات الله النقلية الوحي لجميع الأنبياء عليهم السلام يدل عَلَىٰ الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢] النتيجة: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

وما وقع للأنبياء يدل دلالة بينه عَلَىٰ الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ بَلَغ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا حَتَّىٰ صار ضعيفًا، وامْرَأَتَهُ عاقر فدعا الله فرزقه الله الولد، لا يمكن أن يكون هٰذَا إِلَّا من الرب الواحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ موسى عليه السلام يلقي العصا فتتحول ثعبان يسعى، لا يخيل لهم تتحول حقيقة وينشق له البحر.

ونبينا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينشق له القمر حَتَّىٰ يراه الناس قطعتين، هٰذَا يدل عَلَىٰ الْرَّبّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنَّ الَّذِي أمر القمر فانتظم سيراً وهيئة هو الَّذِي أمره فانقسم إِلَىٰ فلقتين، ولذلك يا إخوة الربوبية لا تكاد تجد عاقلاً إِلَّا وهو يُقِرُّ بها، إِلَّا الشذاذ -كَمَا قُلْنَا-، وينطبق عَلَىٰ أكثرهم إِنَّمَا ينكرون بألسنتهم، أمَّا قلوبهم فتقر بالربوبية.

نعود إِلَىٰ كلام الْمُصَنِّف، قَالَ: **"فالرّب مصدر ربَّ يَرُبُّ ربًّا فهو رابٌّ"**، هٰذَا قول -كَمَا قُلْنَا-، وراب بمعنى المربي اسم فاعل، وحُذفت الألف لكثرة الاستعمال، هو رابٍ ثُمَّ حذفت الألف لكثرة الاستعمال والمعنى المرّبي، والمربوب اسم مفعول فالله سُبْحَانَهُ وتعالى المربي، وجميع المخلوقات مربوبونَ.

(المتن)

فمعنى قوله تَعَالَىٰ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] رابُّ العالمين.

(الشرح)

أي مربيهم أي مربي العالمين.

(المتن)

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ: "فإن الربّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الخالق الموجد لعباده".

(الشرح)

وَهٰذَا عام لجميع المخلوقين، فالله سُبْحَانَهُ خالق جميع المخلوقين وهو الموجد لهم.

(المتن)

قَالَ: "القائم بتربيتهم وإصلاحهم".

(الشرح)

نعم القائم بتربيتهم في قلوبهم وفي أبدانهم، وهٰذَا عامٌ لجميع المخلوقين من حيث يَعْنِي عمل القلب الَّذِي يحيى به الإنسان ومن حيث الأبدان، وإصلاحهم يَعْنِي المصلح لقلوبِ من شاء، والمصلح لدنيا العالمين، فالإصلاح يا إخوة يكون عامًا للعالمين بإصلاح دنياهم وأبدانهم، ويكون خاصاً بإصلاح قلوب المهتدين أهل السعادة، وأهل الهداية في الدنيا والنعيم في الآخرة، فَهٰذَا قد يكون عاماً وقد يكون خاصاً، أو يكون عامًا ويكون خاصًا.

(المتن)

قَالَ: "المتكفّل بصلاحهم من خلقٍ ورزقٍ وعافيةٍ وإصلاح دين ودنيا".

(الشرح)

هٰذَا الَّذِي ذكرناه في الإصلاح أنه قد يكون عامًا وخاصًا، فالإصلاح بالخلق والرزق والعافية وإصلاح الدنيا عام، وإصلاح الدين بمعنى البيان عام أَيْضًا للمكلفين، وإصلاح الدين بمعنى الهداية هداية التوفيق خاصٌ لمن شاء الله هدايته، انتبهوا لهٰذِه الجملة، فالله هدى جميع المكلفين إِلَىٰ صراطه المستقيم.

وهدى أهل السعادة صراطه المستقيم، الله هدى جميع المكلفين إِلَىٰ صراطه المستقيم، فقد بَيَّن صراطه المستقيم لجميع المكلفين فهداهم إِلَىٰ الصراط، وَأَمَّا أهل السعادة فهداهم الصراط، بَيَّن لهم ووفقهم وأعانهم وثبتهم، ولذلك نحن نقول ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، ما نقول اهدنا إِلَىٰ الصراط ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

فتضمن هٰذَا البيان والتوفيق والإعانة والتثبيت، ولذلك نحن عَلَىٰ الأقل نقول ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] في اليوم والليلة سبعة عشر مرة، لإن بحاجة إِلَىٰ ربنا لإعانتنا وتثبيتنا، لأن بعض الناس يقول لماذا ندعو هٰذَا الدعاء وقد هدانا الله نحن نصلي، لأن ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] ليست وِزان إِلَىٰ اهدنا إِلَىٰ الصراط المستقيم، والله عَزَّ وَجَلَّ مربي أهل السعادة.

والناس أيضاً يتفاوتون في هٰذِه التربية، فأكمل الناس في التربية الخاصة مُحَمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ وَأُولُو العزم من الرسل ثُمَّ بقية الرسل، ثُمَّ الأنبياء عَلَىٰ الفرق بين الرسل والأنبياء، ثُمَّ الأمثل فالأمثل من عباد الله، وهٰذَا سرُّ كثرة دعاء الأنبياء عليهم السلام الله يا رب أو ربي، لأن هٰذَا طلب لهٰذِه التربية الخاصة مع الْدُّعَاء.

ربي ارزقني يَعْنِي ربي كل لي ربًا هاديًا موفقًا معينًا مثبتًا وارزقني، وهٰذَا أمر عظيم ينبغي أن يستشعره الإنسان وهو يدعو الله، فهٰذَا ما يتعلق بمعنى الْرَّبّ، ثُمَّ سينتقل المصنف رَحِمَهُ اللهُ إِلَىٰ اسم الله أو الإله وهل هو مشتق، وَالْمُصَنِّف سيشير فَقَطْ إِلَىٰ الاشتقاق، ثُمَّ ينتقل الْمُصَنِّف رَحِمَهُ اللهُ إِلَىٰ العلاقة بين الألوهية والربوبية.

فنقف عند هٰذَا الموقف ونُكمل إِنْ شَاءَ اللهُ الأسبوع القادم، يا إخوة هٰذَا الكتاب بديع جدًّا كما وصفه مؤلفه، ومن فهمه فهمًا صحيحًا دقيقًا يُحكِم كليات التوحيد توحيد الألوهية ويقوى توحيده، فإذا ضمَّ إليه فهم كتاب التوحيد فهم توحيد الألوهية كليات وجزئيات، وصفى له التوحيد توحيد الألوهية، وهٰذَا هو الفوز والله.

فنسأل الله أن يعيننا عَلَىٰ شرحه عَلَىٰ الوجه الَّذِي يحقق المقصود منه، وننتفع به وننفع إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ؛ اسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يجعل أجر هٰذَا المجلس موفوراً محفوظاً لنا، وأن يسرنا عند لقائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن يجعله نوراً لنا في حياتنا، ومعظماً لِنورِنا عَلَىٰ الصراط، بارك الله في الجميع وتقبَّل الله من الجميع، ونلتقي عصراً إِنْ شَاءَ اللهُ في درس دليل الطالب.

واللهُ تَعَالَىٰ أَعَلَىٰ وَأَعْلَمُ وَصَلَّى اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا وَسَلَّمْ.